النظريات المفسرة للسوك الاجرامي:

على الرغم من اهمية الاحاطة بكافة التفسيرات العلمية التي قدمت لتفسير السلوك الاجرامي، فانه من الصعب حصر كافة التفسيرات النظرية التي قدمت وتمتد الى ابعد من حدود القرن، وعموما توزعت بين تصورات ثلاث بيولوجي أو نفساني أو اجتماعي، لذلك سنستعرض بعض النظريات المهمة، ومنها:

1. النظريات البيولوجية المفسرة للسلوك الإجرامي:

يقوم التفسير العضوي (البيولوجي) على اساس ان اتجاه الفرد الى الجريمة يرجع الى استعداد فطري بيولوجي موروث في الفرد, كما ان هناك علاقة بين السلوك الاجرامي والتكوين العضوي الفيزيقي للجسم سواء من ناحية شكل الجسم او من ناحية الكفاءة الوظيفية لأجهزته المختلفة كالمخ والجهاز العصبي والغدد، وبعبارة اخرى وبغض النظر عن الخلافات الفرعية بين العلماء المتحدثين في هذا الاتجاه نجد ان هذا الاتجاه يقوم على مسلمتين اساسيتين هما:

الاولى: ان السلوك الاجرامي ممكن ان ينتقل بالوراثة من جيل الى جيل اخر, كما تنتقل الصفات الاخرى كلون العيون وطول القامة ... الخ.

الثانية: ان بناء الجسم وتكوينه العضوي الفيزيقي او الصفات الجسمية التي يولد بها الفرد هي التي تحدد شخصيته وسلوكه ومزاجه واتجاهاته النفسية. او بعبارة اخرى ان الفروق الوراثية او التكوينية بين الافراد تنعكس في فروق سلوكية ونفسية بينهم.

أ . نظرية لـومـبـروزو:

مما لا شك فيه أن علم الإجرام الحديث يدين بالفضل للماركيز الإيطالي سيزار لومبروزو César Lombroso ، الذي وضع أسس الحركة العلمية في مجال الدراسات الإجرامية، والذي تمثل نظريته حجر الزاوية لكافة المذاهب البيولوجية والتكوينية التي قيلت من بعده حول تفسير السلوك الإجرامي، كما أن أفكاره تمثل عصب الفلسفة الوضعية في الفكر العقابي والسياسة الجنائية.

ولد لومبروزو في فيرونا Vérone في نوفمبر من عام 1835 ، من أبوين يهوديين ودرس الطب في عدد من الجامعات الإيطالية، وبعد تخرجه عمل أستاذاً للطب الشرعي والعقلي بجامعتي بافيا Pavia وتورينو Torino الإيطاليتين، كما كان طبيباً للأمراض العقلية في سجون إيطاليا، وقد أتاح له عمله عدة سنوات في الجيش الإيطالي ملاحظة العديد من النماذج المختلفة من الجنود والقادة العسكريين، وقد لاحظ أن بعضهم يتصف بسمات يغلب عليها طابع القسوة والتمرد على النظام، بينما يتسم البعض الآخر منهم بالطاعة والانضباط.

كما أن الجنود الأشرار كان لديهم شذوذاً عضوياً وكانت لديهم وشمات ورسوم قبيحة، ليست موجود لدى أقرانهم من بقية العسكريين، ولاحظ على أكثرهم يستعمل اليد اليسرى بدلاً من اليمنى.

كما أجرى لومبروزو بحوثاً على نحو 383 جمجمة لمجرمين متوفيين من مرتكبي جرائم العنف، فقد اكتشف تجويف في مؤخرة الدماغ مثل التي توجد عند بعض الثدييات الدنيا، واسترعى انتباهه شذوذ في تكوين الأسنان وشكل الجبهة وحجم الجمجمة، يشبه الحال الذي كان عليه حال الإنسان الأول، وتأكدت وجهة نظره هذه بتطبيقه للمقاييس الأنثروبولوجية وبالفحص العضوي لعدد 5907 من المجرمين الأحياء.

وقد سجل لومبروزو أسس الحركة العلمية في مجال علم الإجرام ونتائج أبحاثه تلك في كتابه الشهير "الإنسان المجرم" L'homme criminel ، الذي ظهرت طبعته الأولى عام 1876.

ثم تبعه بمؤلف آخر في عام 1901 أسماه "الجريمة أسبابها وعلاجها، واختتمها بمؤلف عن المرأة المجرمة والدعارة في عام 1906.

وتقوم نظرية لومبروزو على أساس أن هناك أشخاصاً يتميزون بخصائص جسدية وملامح عضوية خاصة وسمات نفسية معينة، وأن هؤلاء الأشخاص ينقادون إلى الجريمة بتأثير العوامل الوراثية ويندفعون إلى الإجرام بحكم تكوينهم البيولوجي، اندفاعاً حتمياً، لا يكون حياله من سبيل للعلاج سوى استئصاله من المجتمع، ولا يخفى تأثر لومبروزو في ذلك بأفكار داروين عن التطور والارتقاء التي تعرض لها في كتابه الأشهر "أصل الأنواع" عام 1859، والذي يؤكد فيه أن الإنسان هو استمرار لسلفه الحيواني، أو أن الإنسان هو أخر حلقة من حلقات تطور الخلية الحية الأولى. وهكذا فلدى لومبروزو أن الإنسان المجرم هو الذي يحتفظ عن طريق الوراثة بالخصائص الأنثروبولوجية والبيولوجية المماثلة للإنسان البدائي، فتدفعه دفعاً إلى سلوك سبيل الجريمة، أي أن المجرم مجبر على ارتكاب الجريمة، فهو مجرم بالميلاد أو بالطبع، أي أن السلوك الإجرامي يقوم لديه على فكرة الحتمية البيولوجية، التي تعود إلى انحطاط في الأصل، أي توافر صفات تشريحية وعقلية ونفسية وعلامات ارتدادية في شخص المجرم تطابق ما كان عليه الإنسان في العقود السحيقة، تؤدي إذا ما توافرت في شخص معين إلى دفعه–بلا اختيار– إلى السقوط في هوة الجريمة

ولقد كانت نقطة البدء لدى لومبروزو عندما شرع في تشريح جثة قاطع طريق في جنوب إيطاليا يدعى فيليلا Vilella ، إذا اكتشف وجود تجويف في مؤخرة جمجمته شبيه بالتجويف الذي يوجد لدى بعض الحيوانات المتوحشة والقردة ولدى بعض الثدييات الدنيا، وقد استنتج من ذلك أن المجرم يتمتع بشذوذ جسماني يرتد به إلى صفات وخصائص الإنسان الأول وأن هذا الشذوذ هو الذي يفسر إجرامه، بل ويجعله منقاداً على نحو حتمي إلى سلوك سبيل الجريمة.

ومن بعد تناول لومبروزو بالفحص حالة مجرم خطير يدعى فيرسيني، اتهم بقتل نحو عشرين من النساء بطريقة وحشية، حيث كان من عادته أن يمثل بجثثهم بعد قتلهم، ويشرب من دمائهم ثم يقوم بدفنهم في أماكن خصصها لذلك، وقد لاحظ عليه لومبروزو وجود علامات خاصة مثل التي كانت توجد لدى الإنسان البدائي والحيوانات الدنيا والمتوحشة.

سمات الارتداد لدى لومبروزو:

خلص لومبروزو من دراسته لتلك الحالات إلى أن للمجرم الصفات التشريحية والنفسية ومظاهر قسوة التي كانت توجد لدى الإنسان البدائي والحيوانات المتوحشة ، تدفعه إلى الجريمة على نحو حتمي وبحكم تكوينه البيولوجي والعضوي، فالمجرم هو نوع من البشر يتميز بمظاهر جسمانية شاذة وسمات نفسية معيبة يرتد بها إلى الأصول الأولى للإنسان في العصور الغابرة.

وقد عدد لومبروزو مظاهر هذا الارتداد أو الرجعة الإجرامية، فذكر منها انحدار الجبهة، وضيق تجويف عظام الرأس، بروز عظام الوجنتين، وغزارة في شعر الرأس والجسم، وقلة شعر اللحية، وطول مفرط في الذراعين والأصابع، ضخامة الفكين، والشذوذ في حجم الأذنين وفلطحتها، والشذوذ في تركيب الأسنان، وانعكاف الأنف وفلطحته، والبلوغ الجنسي المبكر، وقد اشترط لومبروزو وجود خمس علامات على الأقل من علامات الارتداد كي يصبح الإنسان مجرماً بالفطرة.

وقد وجه لومبروزو بعض أبحاثه محاولاً أن يجمع الصفات العضوية الخاصة التي توجد لدى طوائف المجرمين من السارقين والقتلة ومحترفي الدعارة ومغتصبي النساء.

ولا يقف الأمر لدى لومبروزو عند حد توافر سمات ارتدادية خاصة بالمجرم، وإنما قرر من واقع بحوث لاحقة أن هناك علاقة وثيقة بين الإجرام وبين التشنجات العصبية أو الصرع.

ولقد كان دليله في ذلك حالة الجندي ميسديا Misdea الذي كان مريضا بالصرع، فقد حدث في عام 1884 أن طرد هذا الجندي فجأة – بعد عدة سنوات قضاها في الجيش وكان قد مسك منضبطاً لقتله ثمانية من رؤسائه وزملائه، ثم سقط فاقد الوعي اثني عشر ساعة لمجرد أن أحدهم سخر من مقاطعة كلابريا التي ينتمي إليها، ولما أفاق من جريمته لم يتذكر شيئا مما حدث.

وخلص لومبروزو من ذلك إلى أن هناك صلة بين الإجرام وبين التشنجات العصبية المصاحبة للصرع، التي من شأنها أن تدفع المجرم إلى ارتكاب أفعال تتسم بالعنف ربما دون أن يدري عنها شيئاً.

بل أن لومبروزو قد كشف في الطبعة الثانية لمؤلفه الإنسان المجرم عام 1897 عن أن هناك عدد من الصفات النفسية والملامح السلوكية الخاصة التي تميز المجرم عن غيره من الأفراد، من تلك الصفات ضعف الإحساس بالألم، الذي كشف عنه كثرة وجود الاوشام على أجسام المجرمين، الغرور، انعدام الشعور بالشفقة، سهولة الاستثارة والاندفاع، الكسل واللامبالاة، الشعور بعدم الاستقرار، ضعف الوازع الأخلاقي، عدم الشعور بالذنب.

تصنيف المجرمين عند لومبروزو:

لقد تعرضت أفكار لومبروزو أبان ظهورها لنقد شديد خاصة فيما يتعلق بفكرة الارتداد، وتمسكه بالمجرم بالميلاد أو بالفطرة كنمط إجرامي وحيد بين المجرمين، إذ من الصعب جمع كافة المجرمين تحت نموذج واحد، وقد دفع هذا النقد لومبروزو إلي أن يطور من نظريته، فقام باستبعاد المجرم بالميلاد وأضاف طوائف أخرى من المجرمين، وانتهى إلى اعتماد تصنيف سداسي للمجرمين يضم الفئات الآتية :

-1 المجرم المجنون: وهو الشخص الذي يرتكب الجريمة تحت تأثير المرض العقلي، وقد أدخل لومبروزو في هذه الطائفة المجرم الهستيري ومدمن الخمر والمخدرات.

-2 المجرم الصرعي: هذا النمط يضم من يرتكب الجريمة تحت تأثير الصرع الوراثي، الذي ينتقل عادة عند الولادة، ويؤدي إلى ضمور في بعض العضلات ويؤثر على الأعصاب ويحد من الوظائف النفسية، وقد تتطور حالة المريض بالصرع فتؤثر على حالته العقلية بسبب استعداده الخاص للاضطرابات العقلية فينقلب إلى مجرم مجنون.

-3المجرم السيكوباتي (المجنون خلقياً): وهو الشخص الذي ينعدم لديه القدرة على التكيف مع المجتمع، فيبدأ بالتصادم معه في صورة خرق القوانين وارتكاب الجرائم.

-4 المجرم بالعاطفة: وهو مجرم يتصف بحدة المزاج وبالحساسية المفرطة وسرعة الانفعال وجموح العاطفة، يندفع إلى تيار الجريمة تحت تأثير حب شديد أو حقد أو غيرة أو استفزاز ...الخ، وغالبا ما تكون جرائمه من نوع الجرائم السياسية وجرائم الاعتداء على الأشخاص، وسرعان ما يندم عقب ارتكاب جريمته ، لذا غالباً ما يسارع إلى تعويض الضرر الناتج عن الجريمة ، أو تغيير محل إقامته كي يبتعد عن مكان الجريمة أو الاتصال بالمجني عليه. وقد يقدم على الانتحار عقب جريمته.

-5 المجرم المعتاد: وهو نمط من المجرمين يولد من دون أن تتوافر لديه علامات الارتداد أو صفات وخصائص المجرم المجنون أو بالميلاد ، إلا أنه يندفع إلى ارتكاب الجريمة تحت تأثير ظروف بيئية واجتماعية معينة ، كإدمان الخمر ، البطالة ، الفقر ، أواختلاطه بمحترفي الإجرام منذ الصغر. فهو مجرم بالاكتساب وليس بالميلاد. ويغلب أن تكون جرائمه بسيطة من نوع جرائم الاعتداء على الأموال ، وكثيراً ما ينجح السجن في تهذيبه وتقويمه ويدفعه إلى الإقلاع عنها.

-6 المجرم بالصدفة: وهو شخص لا يتوافر فيه الاستعداد الإجرامي وليس لديه صفات المجرم بالميلاد ، ولكنه غالباً ما يرتكب جريمة بالصدفة ويعتاد على تكرارها.

ب. نظرية كريتشمر " :"E. Kretchmer

وفيها حاول أرنست كريشمر إقامة علاقات بين أنماط بناء الجسم وبين نمط المزاج الذي يميز كل نمط من هذه الأنماط من ناحية وبين هذه الأنماط والسلوك الإجرامي من ناحية أخرى، وقد انتهى كريتشمر الى تقسيم الناس بوجه عام طبقا لبنية الجسم إلى أربعة أنماط هي: النمط الواهن أو الضعيف، والنمط المكتنز، والنمط الرياضي، والنمط المختلط أو المشوه، كما قسم هؤلاء الناس طبقا للأنماط المزاجية إلى ثلاثة هي: النمط شبه الفصامي، وهو الذي تنتهي حالته المرضية في نهاية الأمر إلى الفصام، والنمط شبه الدوري وهو الذي تنتهي حالته المرضية في نهاية الأمر إلى الذهان الدوري، أما النمط الثالث فهو النمط شبه الصرعي.

وقد ربط كريتشمر بين أنماط بنية الجسم وأنماط المزاج فأقام ارتباطا بين شبه الفصامي وبين النمط الواهن أو الضعيف بصفة خاصة، وبينه وبين النمط الرياضي والمشوه إلى حد ما. كما ربط بين النمط شبه الدوري والنمط المكتنز، كما ربط بين الأنماط السابقة وبين مختلف أطوار الجريمة، فذكر أن النمط الرياضي نمط سائد في جرائم العنف، وأن النمط الواهن نمط سائد في جرائم السرقة أو الغش البسيطة، بينما يميل النمط المكتنز إلى ارتكاب جرائم الخداع والغش بصورة عامة، ويلي ذلك تكرار ارتكابه لجرائم العنف، أما النمط المشوه او المختلط فهو أميل للجرائم الأخلاقية أو الجرائم المنافية للآداب كما يمكن أن يقدم على ارتكاب بعض جرائم العنف.

ورغم ان كريتشمر لم يدع او يحاول اقامة علاقات متبادلة قاطعة بين هذه الانماط وبين صور الجريمة، بل ادعى وجود ميول عامة غالبة على كل نمط من هذه الانماط لارتكاب بعض صور السلوك الاجرامي، فانه لم يحاول عقد مقارنات خاصة بين المجموعة التجريبية من مرضاه الذين يخضعون للعلاج من بعض الامراض العقلية وبين مجموعة ضابطة من غير المجرمين لا يخضعون للعلاج. وهذا يؤدي الى صعوبة تحديد الخصائص التي تميز الانماط التي يدعي تكرار ارتكاب كل منها لأحدى صور الجريمة.

ج. نظرية دي تيليو - Di Tulio (نظرية التكوين الإجرامي):

وهي نظرية جاء بها العالم الايطالي دي توليو عام 1945 وقد عمل فيها إلى تقسيم المجرمين إلى فئات ذات سمات تكوينية معينة، وذلك بوجود عوامل تكوينية داخلية ذات علاقة بالسلوك الاجرامي، وقسم المجرمين إلى صنفين هما:

1. المجرم العرضي: وعادة ما ينتمي هذا النوع إلى الطبقة الوسطى، وأن المجرمين من هذا النوع يبدون متوافقين ولديهم القدرة على حفظ الاتزان بين مطالبهم الذاتية والمتطلبات الاجتماعية، وتؤدي العوامل الداخلية إلى الإخلال باتزان الفرد واضطرابه وعدم قدرته على

التكيف، الأمر الذي يجعله يقدم على ارتكاب الفعل الإجرامي، وأن هناك دوافع نفسية واجتماعية تؤثر عليه مثل الحاجات النفسية ومطالب الحياة اليومية.

2.المجرم التكويني: وهؤلاء ذو استعداد لارتكاب الفعل الإجرامي، ولهم خصائص جسمية ونفسية معينة، مثل الضعف العقلي، وعدم الاتزان واضطراب القدرات العقلية فيما يتعلق بالتفكير المجرد واستخدام المنطق يرى الفقيه الإيطالي دي توليو أن تفسير السلوك الإجرامي يرتبط تماما بنمو الشخصية الإنسانية في علاقاتهما الجدلية بالعوامل البيولوجية والنفسية والوظيفية والتي تنمو تدريجيا منذ ميلاد الفرد ثم تتأمل في مرحلة النضج، فالإنسان يمر نمو شخصيته بمراحل متتابعة يتحرر في نهايتها من الترهات الفطرية واحتياجات الطفولة ويكتسب قدرات ووظائف جديدة تميز الإنسان البالغ.

جاءت نظرية دي تيليو كرد فعل على نظرية لومبروزو التي ركزت على وجود (المجرم بالتكوين) وإن اتفق دي تيليو مع لومبروزو على وجود المجرم بالتكوين إلا انه أنكر كونه عاملاً وحيداً للسلوك الإجرامي، وإنما يشكل مع غيره من العوامل الاجتماعية عاملاً مركباً للسلوك الإجرامي.

لقد اتفق دي تيليو مع لومبروزو من حيث المبدأ، إلا أنَّه بدأ يتحول تدريجياً (من فكرة المجرم الحتمي بالتكوين إلى فكرة المجرم الاحتمالي).

وتتخلص نظرية دي تيليو باعتقاده بوجود ميل واستعداد للأجرام لدى الشخص المجرم وذلك إثر تكوين خاص للشخصية الفردية، واتسامها بصفات عضوية ووظيفية وراثية أو طبيعية أو مكتسبة من البيئة لقد فرق دي تيليو بين صورتين رئيسيتين للاستعداد الإجرامي: الأولى عرضية والثانية ثابتة.

فالأولى: هي عوامل فردية واجتماعية اقوى من قدرة الجاني على ضبط مشاعره فتحرك عوامل الجريمة ليديه ومن أنواعها الحقد والغيرة.

والثانية: متجسدة في تكوين الإنسان وتتركز في ناحيتي التكوين العضوي والنفسي للشخصية الفردية وهذا ما يسميه أيضا دي تيليو الاستعداد الأصيل للأجرام المنبعث عن شخصية الجاني والذي يمثل مصدراً للجرائم الخطيرة.

لقد اعتبر دي تيليو بأنَّ لإفرازات الغدد أثرها الكبير على سير أجهزة الجسم، والتي لها انعكاساتها في الوقت ذاته على مظاهر الحياة النفسية للإنسان، وبالتالي على معالم شخصيته، وقد خلص دي تيليو في النهاية إلى وجود (نموذج بشري غددي إجرامي)